85399

مؤسسة الكويت للتقدم العلمي

طرق استنباط الأحكام من القرآن الكريم

القواعد الأصولية اللغوية

د. عجيل جاسم النشمي
جامعة الكويت - كلية الشريعة

الطبعة الثانية
١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م
الكويت

جميع الحقوق محفوظة

الناشر: مؤسسة الكويت للتقدم العلمي
مشروع قاموس القرآن الكريم
الكويت: (١٣١١٣)
ص.ب: ٢٥٢٦٣
فاكس: ٢٤١٥٣٦٥
طباعة ذات السلاسل

مقدمة

بسم اللّه الرحمن الرحيم، والحمد للّه رب العالمين «**الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً**»(١).

وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، قيوم السموات والأرض ومن فيهن، له الملك وله الحمد وهو على كل شي قدير، لا عز إلا في التذلل إليه، ولا غنى إلا في الافتقار إلى رحمته، ولا هدى إلا في الاستدلال بنور كتابه المبين، الذي أنزله هدى ورحمة للعالمين، من حكم به عدل وهُدي إلى الصراط المستقيم.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلوات اللّه وسلامه عليه، خيرته من خلقه أجمعين، وأمينه على وحيه وقرآنه المبين، بعثه بكتابه القويم ليبلغ الناس به، بشيراً ونذيراً.

ونصلي ونسلم على صحبه الأكرمين، الذين أخذوا كتاب اللّه بقوة إيمان وبرْد يقين، فاستقر مسكنه في قلوبهم، وارتسم حيا على جوارحهم، وسعدت به حياتهم حين أجابوا نداء الكتاب الحميد بالرضى والقبول، وواصلوا السير إليه بالغدو والرواح، فحمدوا عند الوصول مسراهم، وإنما يحمد القوم السُّرَى عند الصباح، أما بعد.

القرآن الكريم

هو كلام اللّه رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ بلفظ عربي مبين معجز، مبدوء بسورة الفاتحة، مختوم بسورة الناس، منقول إلينا بالتواتر، يتعبد المسلمون بتلاوته.

---

(١) سورة الكهف آية ١،٢ .

القرآن الكريم

أنزله اللّه تبارك وتعالى لهدف عظيم وغاية سامية، أنزله ليخرج به الناس من عبادة العباد الى عبادة رب العباد، أنزله ليخرج به الناس أجمعين من الظلمات إلى النور «كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ»[1] فهو يحمل هداية البشرية عقيدة وعبادة وتشريعا بما يكفل للناس حياة سعيدة في دنياهم، في تحقيق العدل والحرية والمساواة بين الناس جميعهم في أي زمان كانوا أو مكان؛ لأنه يخاطب فطرة الإنسان القويمة السوية التي فطر اللّه الناس عليها، واللّه أعلم بها «أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ»[2]، وكفل في ذات الوقت الحياة الرغيدة المرضية في الآخرة لمن سعد بالهداية في الدنيا. قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾[3].

القرآن الكريم

معجز كله، معجز في لفظه ونظمه وبلاغته:

فألفاظ القرآن ونظمه وبلاغته تأخذ بمجامع القلوب والمشاعر، وتفتح القلوب لتطمئن وتضيء وتحيا وتشرق، وتطفو على الجوارح لتمتثل توجيه القلب السليم فتزرع الخير والعطاء والثمر. وإذا تحققت هذه الغاية وانشرح الصدر واهتدى بنور القرآن، أصبح قلب المجتمع القرآن العظيم، وغدا مجتمعا قرآنيا، المجتمع الفاضل بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى.

ولم يكن لفظ القرآن يتلى ويلتذ بسماعه فحسب، بل كان تأثيره في القلوب والجوارح أبلغ من تأثيره في الأسماع، فكان الامتثال العملي صفة المؤمن المصدق للفظه «إِنَّ ٱلَّذِينَ أُو۟تُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا»[4] « ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ

(١) سورة ابراهيم آية ١ .
(٢) سورة الملك آية ١٤
(٣) سورة النساء آية ١٢٤ .
(٤) سورة الإسراء آية ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩ .

جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ»[1].

لما سمع العرب القرآن يتنزل بينهم وهم أرباب اللغة وفرسانها أيقنوا أن هذا ليس لفظ بشر، فمنهم من آمن، ومنهم من كابر وجحد. لكنهم جميعا أذعنوا لسلطان نظمه وبيانه.

لما سمع عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه آيات منه وهو في حالة غضب شديد لا يتورع عن قتل من يراه من المسلمين، اضطرب قلبه وتحركت مشاعره وأيقن بعقله وقلبه أن ما سمعه ليس من كلام البشر، يقول عمر: «**لما سمعت القرآن رق قلبي، فبكيت ودخلني الإسلام**» هكذا يفعل القرآن، يفتح القلب ويدخل. ثم يبحث عمر عن النبي ﷺ الذي ما كان أحد أبغض إليه منه، فيلقاه ويجلس إليه ليعلن الشهادتين ويدخل الإسلام شخصا جديدا.

وفي المقابل يسمع الوليد بن المغيرة شيئا من القرآن، فيرق له قلبه أيضاً ويكاد حاله يتغير، فتتداركه قريش لئلا يصبو فتصبو قريش تبعا له، فيوفدون له أبا جهل يكلمه ويثبته على جاهليته، ويستثيره كيما يقول فيما سمع من القرآن قولا جارحا. فيقول بلسان الصدق: ماذا أقول فيه؟ فواللّه ما منكم من رجل أعلم مني بالشعر، ولا برجزه، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، واللّه ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا، واللّه إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه يعلو ما يعلى، فقال أبو جهل: واللّه لا يرضى قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني أفكر فيه، فلما فكر قال بلسان الكذب والكبر: إن هذا الا سحر يؤثر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وموالية.

القرآن الكريم

ببلاغته وإعجازه هو سلاح الإيمان تجاه الكفر، لقد كان كفار قريش يعدون حربهم مع هذا القرآن فحسب، فانتصارهم عليه انتصار على هذا الدين الجديد، ويحكي القرآن حالهم على لسانهم حين قالوا: «لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ»[2] لكن القرآن غلبهم وأفحمهم وأخرسهم بعد أن حكي القرآن

(١) سورة الزمر آية ٢٣ .
(٢) سورة فصلت آية ٢٦ .

قولهم على لسانهم « قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ »[1] وقالوا: «قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ»[2] فكان هذا بمثابة قبول التحدي، فدعاهم القرآن إلى النزال فتحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن فعجزوا «قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾»[3] ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله فعجزوا «أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾»[4] ثم تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا «وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾»[5].

لقد تحداهم القرآن العظيم بأسلوب استفزازي ليبعث همتهم لكنهم عجزوا رغم وجود المقتضي للمعارضة فقد كانوا حريصين على إبطال هذا القرآن، فلو كانوا قادرين لجاءوا بما عندهم مما يعارض ما جاء به القرآن الكريم، وفي ذات الوقت لم يكن هناك ما يمنع من المعارضة فهم أهل اللغة والبلاغة والفصاحة. فلما وجد المقتضي للمعارضة وعدم المانع منها ولم يفعلوا فقد ثبت عجزهم وإعجاز القرآن لهم.

القرآن الكريم

معجز بما تضمنه من أخبار الغيب التي لا يدركها بشر، فيحدث عن الماضي المستور، والحاضر والمستقبل المجهول، يقص قصص الأولين بسياق فريد، ونظم بديع يشد الأذهان، ويأسر المشاعر، ليستثمر من هذا القصص العظات والعبر. وما كان للنبي ﷺ وهو الأمي أن يدرك شيئاً من هذا الغيب والقصص. «تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ

(١) سورة الأنفال آية ٣١ .
(٢) سورةالأنبياء آية ٥ .
(٣) سورة الإسراء آية ٨٨ .
(٤) سورة هود آية ١٣ .
(٥) سورة البقرة آية ٢٣ ، ٢٤ .

ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ»[1] ويخبر القرآن الكريم أن الروم سيغلبون الفرس بعد هزيمتهم في خلال عشر سنوات من هزيمة الروم، وما أحد على وجه الأرض كان يتوقع أو يدخل في خلده أن الروم ستغلب، وفي هذه المدة الوجيزة «الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»[2] ويحدث ما أخبر به القرآن بعد ثمان سنوات وينتصر الروم، ويفرح المؤمنون لانتصارهم لأنهم أهل كتاب وهم أقرب إلى المسلمين من الفرس الوثنيين. ومن هذا القبيل الذي أخبر به القرآن الكريم الشيء الكثير.

القرآن الكريم

يُعجز البشَر أجمعينَ اليومَ بما أخبر به من الحقائق والمبادئ العلمية التي لا يمكن أن يدرك معناها بشر على وجه الأرض وقت أن نزلت، وكان المسلمون يتلون هذه الآيات دون أن يدركوا معناها ومغزاها الدقيق، حتى جاء العلم الحديث ليكشف عن أسرارها وخباياها بما توصل إليه من الاكتشافات العلمية المذهلة التي أصبحت حقائق راسخة، وقد قررها القرآن قبل ذلك، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾[4] فمن كان يدرك أن الأرض انفصلت عن السماء، وأن الماء سر الحياة في كل شي من نبات وغيره، ومن كان يدرك أن من وظائف الرياح التلقيح للنبات والشجر، وأن لها علاقة وثيقة بالسحاب والمطر؟ وقد تضمن القرآن الكريم من ذلك الشيء الكثير.

القرآن الكريم

معجز في تشريعه: وهذا من أظهر الإعجاز الذي يعايشه البشر إلى أن يرث

(١) سورة هود آية ٤٩ .
(٢) سورة الروم آية ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦ .
(٣) سورة الأنبياء آية ٣٠ .
(٤) سورة الحجر آية ٢٢ .

اللّه الأرض ومن عليها، فقد اشتمل القرآن الكريم على أصول تشريعية ثابتة وأخرى مرنة.

فأما الثابتة: فتشريعات أصول العقائد، والعبادات، والأخلاق، والمبادئ الثابتة: من العدالة، والمساواة، وكرامة الإنسان.

وأما المرنة: فالتشريعات التي راعى فيها تطور البشر وتنوع احتياجاتهم مع اختلاف الزمان والمكان. كقواعد المصالح، وقواعد الضرورات، وسد الذرائع، والقياس، والاستحسان، ومراعاة العرف. وكل ذلك ضمن ضوابط لا تخرج عنها، وكل هذا مرجعه إلى القرآن الكريم بطريق مباشر أو غير مباشر.

وبطريق هذين الأصلين التشريعيين الثابت والمتطور حصر القرآن أحكام البشر كلها، فهي لا تخرج عن واجب، أو مندوب، أو مكروه، أو محرم، أو مباح. ولا يشذ ولا يند عن هذه الأحكام الخمسة أمر من أمور العباد، ولا يخرج عن هذه الدائرة حدث من الأحداث، ولذا قرر علماؤنا أنه ما من حدث إلا وله في كتاب اللّه حكم.

وقد شملت تشريعات القرآن الكريم حاجات البشر أجمعين في أمورهم الاعتقادية، والأخلاقية، والاجتماعية، والتربوية، والاقتصادية، وأحكام الأسرة، وآداب السلوك، والتعامل بين المسلمين أنفسهم، وبينهم وبين غيرهم، وكذا نظم العلاقات الدولية في حالات السلم والحرب.

كل ذلك مع مراعاة الواقع العملي، والقدرات الإنسانية، والفطرة السليمة، وبتوازن في شأن هذا الإنسان بين العقل، والجسم، والروح، فلا يطغى جانب على حساب آخر.

والذي ينظر بعين العقل والإنصاف إلى هذا التشريع يدرك للوهلة الأولى إعجازه، فإنه من المستحيل قطعا أن يقوم بهذا العمل والبناء رجل بذاته، وبقدراته الشخصية، مهما أوتي من الإمكانات، فإن تقرير أي نص تشريعي يحتاج إلى تجارب، وخبرة، وممارسات تأخذ من الزمن السنوات الطويلة، فكيف بتشريع متكامل البناء يتقرر كاملا تاماً في فترة زمنية قياسية، تحتاج الأمم إلى مئات السنين حتى تصل إلى بعضه.

وينكشف إعجاز هذا التشريع اليوم حين تقر المؤتمرات الدولية القانونية في دول الغرب نفسها أن التشريع الإسلامي تشريع مميز يحمل من عناصر الحياة ما لا تحمله نظم الغرب. تقرر ذلك في مؤتمر الحقوق في «فينا» ١٩٢٧ ومؤتمر لاهاي ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧ في المؤتمر الدولي للقانون المقارن، ومؤتمر المحامين الدولي في لاهاي ١٩٤٨ ومؤتمر الفقه الاسلامي في جامعة باريس ١٩٥٠ وغير هذه المؤتمرات كثير.

القرآن الكريم

المصدر الرئيسي الأول للتشريع، منه تتفرع الأدلة المتنوعة، وإليه مآل اعتبارها. وإن دور القرآن الكريم في تزويد المجتمع الإسلامي بالأحكام بطريق مباشر أو غير مباشر ليعد من المعجزات الشاخصة الملموسة، فما زال المسلمون يستنبطون من آيات القرآن الكريم الأحكام الشرعية لمستجدات العصر، ولو كان القرآن حاكما وحكما بينهم لكان مجال الاستنباط منه أرحب وأوسع.

وتعتبر مهمة الاستنباط من أدق وأخطر المهام التي يقع عبء مسئوليتها على علماء المسلمين في كل عصر ومكان. وقد أولى علماء المسلمين من أمد بعيد للاستنباط أهميته، فتكلموا على شروطه وضوابطه، ومن يحق له أن يستنبط ومن لا يحق له ذلك، كما دونوا بعناية فائقة مناهج الاستنباط، وطرقه، ومبتناها على القرآن ذاته، ومقاصده، وسنة النبي ﷺ ولغة العرب، ومن خلال ذلك دونوا قواعد الاستنباط التي ينبغي أن يتعامل بها المسلمون مع كتاب اللّه كي يستنبطوا الأحكام لشئون حياتهم المختلفة. وانبنى على ذلك علم خاص وهو علم أصول الفقه.

وان هذا الكتاب مخصص للكشف عن هذه القواعد التي تستنبط بناء عليها الأحكام، وهو جانب من أهم جوانب عظمة هذا القرآن العظيم الخالد المعجز. وسيكون **منهج البحث محصوراً في القرآن الكريم** لا يتعداه.

وقد قسمنا هذا البحث إلى تمهيد وأربعة مباحث.

أما التمهيد: فيتناول تعريفاً بعلم أصول الفقه، ونشأته، وتطوره، والتعريف